سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

ناصر البرغوثي

تقديم: انكسار التابو

مازالت فلسطين موضوعًا غيرَ شعبيّ في أميركا. ولكنّ كلمة «فلسطين» دخلتْ على الأقلّ في معجم حركة السلام في الولايات المتحدة، بعد عقودٍ من الكفاح المرير. فطوال الستينيّات والسبعينيّات والثمانينيّات والتسعينيّات كان مجرّدُ ذكر هذه الكلمة يثير سجالاتٍ لا تنتهي داخل اليسار على الأخصّ، وداخل حركة السلام بوجه عامّ. وكانت شعاراتٌ بسيطةٌ من قبيل «الحريّة لفلسطين!» تُعتبر جذريّةً جداً وغيرَ ملائمةٍ بالنسبة إلى التيّار السائد في حركة السلام داخل الولايات المتحدة، مع أنّ هذه الحركة سَبَقَ أنْ دعمتْ شعاراتٍ جذريّةً جداً في ما يخصّ نضالاتِ شعوبٍ أخرى: من جنوبيّ إفريقيا، إلى نيكاراغوا وڤيتنام، مرورًا بتيمور الشرقيّة وكوبا.

غير أنّ التابو (الحرْم) الذي مَيَّعَ شعارَ «الحريّة لفلسطين!» إلى محض «نعم للسلام في الشرق الأوسط!» انكسَرَ أخيرًا هذا العام. ففي العشرات من التظاهرات الضخمة في طول البلاد وعرضها باتت الشعاراتُ والهتافاتُ، التي كانت ذاتَ يوم متطرّفةً، شائعةً جداً. وهذه المقالة ستحلّل الشعاراتِ، والتكتيكاتِ، وتكوينَ حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، كاشفةً عن بعض العيوب ومواطنِ القصور التي تحدّ من فعّاليّة هذه الحركة ونجاحها. وسيستند هذا التحليل إلى مشاركاتٍ مباشرةٍ في هذه الحركة، وإلى ملاحظاتٍ من قَلْب الحدث «الفلسطينيّ» في أميركا.

ما الذي يَجْعل دعمَ القضيّة الفلسطينيّة في التيّار السائد في أميركا أمرًا بهذه الصعوبة؟

يَنْبغي القول إنّ حركةَ التضامن الأميركيّة مع الشعب الفلسطينيّ تَعْمل في أكثر البيئات عدائيّةً. فلقد اتّضح وضوحَ الشمس أنّ الولايات المتحدة ـ حكومةً، وإعلامًا، بل وشعبًا في غالبيّته ـ تقف وحيدةً في العالم في انحيازها المتطرّف إلى الجناح اليمينيّ المتطرّف في إسرائيل. وما نَشْهده في الولايات المتحدة ليس فقط اصطفافًا خلف التعويذة التقليديّة القائلة بوجود «واجبٍ مقدّسٍ يتمثّل في حماية أمن إسرائيل،» وإنّما استرضاءً مخجلاً ـ وعلى جميع الصُّعُد ـ لآرييل شارون وحكومتِه الفاشيّة. صحيحٌ أنّ ثمّة تغيُّراتٍ إيجابيّةً قد حصلتْ، مثْلَ تلفُّظِ بوش بكلمة «فلسطين» أو نَشْرِ بعضِ التحليلات الممتازة عن الموضوع؛ ولكنّ الولايات المتحدة تبقى، في نهاية المطاف، منحازةً إلى إسرائيل كما كانت منذ الأزل. فقد عمد اللوبي المؤيّد لإسرائيل إلى اختطاف الكونغرس الأميركيّ رهينةً بين يديه، الأمر الذي أدّى إلى صدور أكبر عدد من القرارات المعادية للفلسطينيِّين وللعرب (٥ قرارات متوالية حظيتْ بتأييد كلّ رجال الشيوخ ونوّاب الكونغرس تقريبًا، مع استثناءات لافتة). ولم تكلّ وسائلُ الإعلام الأميركيّة عن تضخيم الأكاذيب الإسرائيليّة في عقر دار المواطنين الأميركيِّين المتسمِّرين أمام التلفزيونات، مقدِّمةً صورةً طافحةً بالإرهاب الفلسطينيّ و«الردّ الإسرائيليّ المبرَّر.» صحيح أنّه كانت ثمّة استثناءاتٌ في صحف **لوس أنجلس تايمز** و**نيويورك تايمز** و**واشنطن بوست**، لكنّ المحصِّلة النهائيّة هي هي: فكثير من وسائل الإعلام الأميركيّة أشبهُ ببولدوزر يدمِّر أيّ بنيةٍ تحتيّةٍ صغيرة يمكن أن تحكي الروايةَ الفلسطينيّة للأميركيِّين. وقد أحاط الرئيس بوش نفسَه بأكثر الحكومات عداءً للعرب في التاريخ المعاصر، بحيث بدت حكومةُ كلينتون نفسُها «وسيطًا نزيهًا.» وإذا بالقوّة الحاكمة، التي هي ثالوثٌ مكوّنٌ من الإعلام والشقّ التنفيذي والشق التشريعيّ من السلطة، مطلقةُ التأييد لإسرائيل. علاوةً على ذلك فإنّ الخطاب السياسيّ في أميركا، خلافًا لما نجده في أوروبا حيث اتحاداتُ العمّال والحركاتُ اليساريّة والأحزابُ الشيوعيّة قويّةٌ إلى حدٍّ ما وتستطيع من ثمّ أن تتحدّى الأحزابَ الحاكمة بقوّة، أكثرُ خضوعًا لتحكُّم هذا الثالوث المهيمن. ولذلك ليس ثمّة

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

مصدرُ ملعوماتٍ للشعب الأميركيّ يُمْكن أن يشكّل بديلاً حقيقيّاً للإعلام الرسميّ السائد.

نتيجةً لذلك كلّه، مازالت غالبيّةُ الناس في الولايات المتحدة يتماهَوْن إلى حدٍّ كبير مع «مأساة» إسرائيل، من غير أن يَشْعروا بتعاطفٍ شديدٍ مع المأساة الحقيقيّة للشعب الفلسطينيّ. وهذا الواقع يَجْعل من الصعوبة بمكانٍ طرحَ شعاراتٍ جذريّةٍ في أيّ تجمُّع أو تظاهرة داخل التيّار الأميركيّ السائد. وأَنْ تَسِمَ حركةً ما بـ «الراديكاليّة» فذلك في وسائل الإعلام الأميركيّة أسوأُ من الحُكْم عليها بالموت، لأنّه سيَضْمن تلقائيّاً أن يَرْفض الجمهورُ شعاراتِ هذه الحركة وأن يَنْفضّ عنها، خلافًا لحال بعض الدول الأكثر ديموقراطيّةً حيث وَصْفُ المرء بـ «الراديكاليّ» قد يكون أنيقًا ولبقًا chic بل قد يزيد من فتنة الحركة التي ينتمي إليها.

ولا بدّ هنا من تذكّر عاملٍ مهمّ آخر، وهو أنّ دور المثقفين في الولايات المتحدة طفيفٌ إلى حدّ كبير. وهذا يقود الخطابَ السياسيّ إلى درجة عالية من الديماغوجيّة التي تتحكّم بها الأموال. وفي هذا المجال فإنّ اللوبي المؤيّد لإسرائيل أكثرُ تجهُّزًا من حركة التضامن مع فلسطين، لأسباب كثيرة تاريخيّةٍ وماليّةٍ ولوجيستيّةٍ ـ وكلُّها تقع خارج نطاق هذه المقالة.

الشعارات الجديدة القديمة

ولكنْ على الرُّغم من هذه الصورة القاتمة، ثمّة تغيُّراتٌ أساسيّة حصلتْ في ما يخصّ قضيّةَ فلسطين. فقد شهدتْ سان فرنسيسكو، عاصمةُ الراديكاليّة الأميركيّة، مظاهرةً عارمةً في ٢٠ نيسان (أبريل) قُدِّرتْ بحوالى ٥٠ ألف شخص، وكان الشعارُ الرئيسيُّ لهذه التظاهرة: «أَنْهُوا الاحتلالَ الإسرائيليّ؛ الحريّةُ لفلسطين الآن!» وخَلْفَ هذا الشعار سارت كلُّ مشارب الحركة السّلاميّة الأميركيّة تقريبًا: من الكنائس، إلى اتّحادات العمّال والاتحادات المهنيّة، والحركة النسائيّة، وحركةِ حقوق المهاجرين، وحركةِ المثليّين والمثليّات، والحركةِ اليهوديّة التقدُّميّة. وكانت التظاهرة لافتةً في أنّ الآلافَ القليلةَ من المتظاهرين العرب الأميركيِّين ذابوا حقّاً في فُسيفساءَ من عشراتِ آلافِ الأشخاص المتحدِّرين من عشرات الإثنيّات التي تُكوِّن المجتمعَ الأميركيَّ. وكانت التظاهرة لافتةً أيضًا في اليافطات التي حملها المتظاهرون، وفي الهتافات التي أطلقوها (وهو ما سنتحدّث عنه بالتفصيل لاحقًا).

أمّا واشنطن دي سي، وهي عاصمةُ القوّة الأميركيّة وعاصمةُ الخداع الأميركيّ، فقد شهدتْ تظاهرةً أكبرَ من التظاهرة الأولى، ضمّت مِئةَ ألف شخص، وتبنّتْ شعار «الحريّة لفلسطين!» شعارًا أساسيّاً؛ وكان الشعار الأساسيّ الآخر هو «عَوْلِموا الديموقراطيّة!» (في إشارةٍ إلى معارضة المتظاهرين لما يُسمَّى عولمةَ اقتصاد العالم). هذه التظاهرة كانت الأُولى في تاريخ حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في هذه البلاد، من حيث عددُها، ومن حيث ربطُها بين قضايا الكوكب وقضيّةِ فلسطين.

والحقّ أنّ شعارات التظاهرتين كلتيهما، بل وعشرات المظاهرات الأميركيّة الأخرى الأصغر حجمًا، كانت متقدّمةً جداً من الناحية السياسيّة. فقد ربطتْ بين الاحتلال الاسرائيليّ من جهة، والمساعداتِ الأميركيّة لإسرائيل من جهة ثانية، والحربِ الأميركيّةِ على «الإرهاب» من جهة ثالثة. ودانت المآسيَ الإنسانيّةَ التي سبّبها التدميرُ الإسرائيليُّ الهائلُ مستخدمًا الأسلحةَ الأميركيّةَ وغيرَ الأميركيّة. وحدّدتْ مواطنَ الانحياز في الإعلام الأميركيّ. وأشارت إلى صعود الفاشيّة المطَّرد في إسرائيل. ولكنّ أهم ما في هذه الشعارات صلابتُها في دعم الشعب الفلسطينيّ. فهي لم تكن كشعارات التجمُّعات من أجل «السلام في الشرق الأوسط،» بل كشعاراتِ حركةِ تضامنٍ مع فلسطين لأنّها تطالب بإنهاء الاحتلال الإسرائيليّ لكلّ الأراضي المحتلّة عام ١٩٦٧، وتفكيكِ المستوطنات اليهوديّة، وبناءِ دولة فلسطينيّة حرّة وقابلةٍ للحياة. وهذا فارقٌ نوعيّ مختلف عن الشعارات التي سبق أن تبنّتها حركةُ السلام الأميركيّة التقليديّة إزاء مسألة فلسطين.

جولةٌ على الشعارات والهتافات في سان فرنسيسكو

يُقال إنّ ما هو شعبيّ في سان فرنسيسكو اليوم يُنْبئ بما سيصير تيّارًا سائدًا في الولايات المتحدة خلال أعوام. ولهذا أجد من المفيد أن أَدْرس شعاراتِ وتكوينَ هذه التظاهرة الضخمة التي انطلقتْ في ٢٠ نيسان، آملاً أن يكون ذلك إشارةً إلى حدوثِ تغييرٍ ما داخل حركة السلام في أميركا.

إحدى الإشارات تقول: «هذا اليهوديّ يعارض التوسُّعَ الصهيونيّ،» وحَمَلها يهوديٌّ في منتصف العمر من سان فرنسيسكو. وقد أخبرني أنّه يؤيّد تفكيكَ كلّ المستوطنات اليهوديّة في الضفّة الغربيّة وغزّة والقدس. شعارٌ آخر، حملتْه هذه المرّة شابّةٌ إيرانيّةٌ، يقول: «إيرانيّة يهوديّة تَدْعم [قيام] دولةٍ فلسطينيّة.» شعارٌ ثالث حملتْه ثلّةٌ من النِّسْوة الكهلات اللواتي ينتمين إلى مجموعة كنسيّة مسيحيّة من مقاطعة سونوما يقول: «جدّاتٌ ينادين بالسلام من خلال الموسيقى.» شعار رابع يقول: «فليَسْمعْ مخيمُ جنين هُتافاتِنا.» وهناك شعارٌ رفعتْهُ مجموعةٌ من النساء الكهلات أيضًا يقول: «مثليّات لتقويض الإرهاب الإسرائيليّ» (وشعارها بالإنكليزيّة: QUIT، أي: اتركوا!)؛ وقد أخبرتْني ناطقةٌ باسم هذه المجموعة أنّ هذه الأخيرة أرسلتْ بعثةً إلى مخيّم عايدة للاجئين الفلسطينيّين، وأنّ ما رأتْه هذه البعثةُ هناك جعل عضوات المجموعة مصمّماتٍ على فضح إسرائيل في الولايات المتحدة وعلى دعم حركة المقاومة الفلسطينيّة. وكان هناك رسمٌ على شكل علامة «قِفْ» تقول: STOP BUSH (أيْ: قِفْ يا بوش، أو أوْقفوا بوش). وهناك إشارة كُتب عليها: «العالم ليس خزّانَ وَقُودي»؛ وقد أخْبرَتْني رافعةُ هذه الإشارة أنّها مقتنعةٌ بأنّ الإفراط في استهلاك الطاقة في أميركا هو أساسُ قمع الشعب الفلسطينيّ لأنّ الولايات المتحدة ستَفْعل أيَّ شيء لحماية وصول النفط إليها من الشرق الأوسط. أحدُ الرجال المهنيّين كان يرتدي بذلةً ويَحْمل إشارةً كُتب عليها: «CNN IS FULL OF BUSHIT» (أيْ: سي أن أن مليئةٌ بخراء بوش)، ناحتًا بذلك بيْن كلمة Bush (اسم الرئيس) وBullshit (وهو الهراء، أو خراءُ الثوْر بالمعنى الحرفيّ). وقد وجدتُ هذه الإشارة دقيقةً جدّاً في وصفها لِما تغطّيه وسائلُ الإعلام الأميركيّة، لأنّ ما تغطّيه هو حقّاً خراءٌ أَطْلقه بوش! إشارةٌ أخرى تقول: «اقرأوا كُتُبَ إسرائيل شاحاك» (وهو الكاتب الإسرائيليّ الراحل الذي فَضَح الممارساتِ الإسرائيليّةَ العنصريّة، وجذورَ العنصريّة في الصهيونيّة، بل وفي اليهوديّة أيضًا). وحملتْ مجموعةٌ من الأفارقة الأميركيّين إشارةً كُتب عليها: «خمسون عامًا تَكْفي، يا شارون. دَعِ اللاجئين الفلسطينيّين يعودون إلى بيوتهم.» وحمل عمّال في قطاع الصحّة إشارةً كُتِبَ عليها: «بلايينُ الدولارات لمحاربة الإيدْز، لا لِدَعْم الأپارتايد الإسرائيليّ!»

هذه الشعارات تَعْكس فهمًا سياسيّاً متقدّمًا لحقيقة الأوضاع في فلسطين، وهي شعاراتٌ كان صعبًا جدّاً قَبْلَ خمس سنوات فقط أن نَطْمح إلى رؤيتها اليوم. والأمر الدّال هنا ليس أنّ مثلَ هذه الشعارات لم يَرْفعها متظاهرون قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، وإنّما الدّالُّ هو أنّ مَنْ يَرْفعها اليوم أميركيُّون بيضٌ وأفارقةٌ أميركيُّون ولاتينيُّون ونقابيُّون ومؤرِّخون وكتّابٌ ومحامون وهلمّجراً. وبكلمات أخرى، لقد قبل التيّار السائد في حركة السلام هذه الشعارات اليوم، كما تَشْهد على ذلك التظاهرتان المذكورتان.

هل إسرائيلُ الصهيونيّة شبيهةٌ بألمانيا النازيّة؟

كانت أكثرُ الشعارات إثارةً للخلاف هي تلك التي ساوت بين الصهيونيّة والعنصريّة أو النازيّة، إضافةً إلى تلك التي ساوت بين نجمة داوود والصليبِ النازيّ المعقوف. بالنسبة إلى الفلسطينيّين، المساواةُ بين الصهيونيّة والعنصريّة لا تحتاج إلى برهان. وأما المساواة بين إسرائيل الصهيونيّة والنازيّة الألمانيّة فليست بذلك الوضوح، ولكنّها محبّذة لدى قسم من الجالية العربيّة الأميركيّة. ذلك أنّ عددًا كبيرًا من العرب الأميركيّين يَشْعرون أنّ إسرائيل

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

تَرْتكب جرائمَ تساوي في ضخامتها ما اقترفه النازيُّون ضدّ اليهود. وهذا بالطبع يُشكّل إهانةً عظيمةً للجالية اليهوديّة الأميركيّة، ومن ضمنها أكثرُ أفرادها تقدُّميّةً. وقد أَخْبرني متظاهرٌ فلسطينيٌّ، من رام الله أصلاً، أنّ هذا الشعار دقيق. ورأى أنّ نجمة داوود هي الرمزُ الذي اختارتْهُ إسرائيلُ لنفسها، وهو الشعار المرسوم على كل الدبّابات الإسرائيليّة وطائراتِ الأپاتشي والـ ف ١٦ وكلِّ أسلحة الدمار الشامل الإسرائيليّة. وأضاف أنّ التكتيكات التي يتّبعها الجيشُ الإسرائيليّ، كتطويق المدن الفلسطينيّة والسعي إلى تجويعها وتدميرِ بناها التحتيّة، شبيهةٌ جداً بالتكتيكات النازيّة تجاه بولندا وروسيا؛ ومن هنا مساواةُ هذه بتلك. حين سألتُه إنْ كان يَكْره كلَّ اليهودَ أجاب: «لا بالتأكيد. إذا غادروا بلدنَا فليس عندي أيُّ شيء ضدّهم.»

ومع ذلك فإنّ هذا الشعار الذي يجده كثير من العرب مقبولاً، إنْ لم يكن ضروريّاً، إنّما هو شعارٌ يهين إلى حدٍّ ما قسمًا كبيرًا من حركة السلام في أميركا، وهي حركةٌ كان الصراعُ ضدّ اللاساميّة بندًا أساسيّاً في أَجَندتها على الدوام. أحد المتظاهرين الإسرائيليِّين اليساريِّين، وكان يَحْمل إشارةً كُتِبَ عليها: «أَوقِفوا اليوغرومات ضدّ الشعب الفلسطينيّ» (واليوغروم تحيل على المجازر التي ارتكبَها قيصرُ رُوسيا ضدّ اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، أَخْبَرَني أنّه يجد استخدامَ نجمة داوود مهينًا جداً للمشاعر لأنّها رمزٌ دينيٌّ للشعب اليهوديّ. وقال إنّ مجرّد استخدام حركة طالبان لاسم اللّه على عَلَمهم لا يبرِّر أن يَحْمل متظاهرٌ معادٍ لهم إشارةً تساوي بين اسم الجلالة والشرّ أو القمع، لأنّ هذا سيكون بالتأكيد أمرًا بالغَ الإهانة للمسلمين. حين سألتُه عن الإشارة التي يَحْملها قال إنّه لا يجد حَرَجًا من الاعتراف بأنّ إسرائيل تَرْتكب جرائمَ حربٍ شبيهةً في طبيعتها باليوغرومات ضدّ اليهود في أوروبا.

المشكلة في مساواة إسرائيل الصهيونيّة بألمانيا النازيّة هي أنّ هذه المساواة غيرُ دقيقة من الناحية التاريخيّة، أولاً؛ وتنفِّر قسمًا كبيرًا من حركة السلام في أميركا كان يُمْكن أن يكون أكثرَ استعدادًا في دعمه لفلسطين، ثانيًا. إنّها مساواة غير دقيقة تاريخيّاً لأنّ ألمانيا النازيّة أَعْلنت الحربَ على العالم واحتلّت معظمَ أوروبا، فقتلتْ عشرات الملايين من بني البشر. ومن الواضح أنّ إسرائيل حتى الآن ليست قادرةً على ارتكابِ ١٪ ممّا فعله النازيُّون، ولا يبدو أنّها في حاجة إلى ذلك. والحقّ أنّ هناك مقارنتيْن أدقّ بكثير، هما اللتان تشبِّهان إسرائيل بجنوبيّ أفريقيا زمنَ الأپارتايد، أو بصرْبيا أثناء حكم ميلوشڤيتش. إذ لا جدال في أنّ إسرائيل تستطيع أن تَرْتكب أعمالاً واسعةً من أعمال التطهير العرقيّ بحقّ الفلسطينيِّين، وسبق أن قامت بذلك فعلاً. كما أنّها طبَّقتْ سلسلةً من القوانين التي تتجاوز أكثرَ قوانين جنوبيّ إفريقيا الأپارتايديّة عنصريّةً. هاتان المقارنتان بين إسرائيل من جهة، وجنوبيّ أفريقيا والعرب من جهة ثانية، فظيعتان بما يكفي لإدانة إسرائيل. والمبالغة في تصوير جرائم إسرائيل تُقلِّل في الواقع من هذه الجرائم لأنّها تَنْتقص من مصداقيّة حركة التحرير الفلسطينيّة. وقد قال لي متظاهر إسرائيليّ: صحيح أنّ إسرائيل تضع الفلسطينيِّين في معسكرات، وهذا أمرٌ رهيبٌ، لكنّ هذه ليست معسكراتِ إبادةٍ كغُرف الغاز النازيّة.

حقُّ العودة مايزال تابُوًا (حرْمًا)

شعار آخر أثار خلافًا شديدًا ولم يَحْظَ حتى اليوم بتبنّي التيّار السائد في حركة السلام في أميركا، وهو حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين إلى ديارهم. فلقد جعلتْ وسائلُ الإعلام الأميركيّة هذا الشعارَ يبدو أشبهَ بوشوشات مضلِّلة، متبنّيةً وجهةَ النظر الإسرائيليّة القائلة بأنّ هذا الحقّ يؤدّي إلى انتحارٍ سياسيّ لإسرائيل، ومن دون أن تتوقّف وسائلُ الإعلام تلك مرّةً لتتساءل إنْ كان مقبولاً أن تَحْرم دولةٌ سكّانها الأصليِّين من العودة إلى بيوتهم

لأنّها تريد أن تحافظ على طبيعتها الدينيّة اليهوديّة الحصريّة. والحقّ أنّ حركة التضامن مع فلسطين لم تنجحْ في شرح هذا الشعار للقسم الأعظم من حركة السلام في أميركا أو للجمهور الأميركيّ عامةً. وقد يعود السببُ في ذلك إلى أنّه يناقض إيمانًا راسخًا في أميركا، بل يكاد يكون إيمانًا أعمى، بأنّ لإسرائيل الحقَّ في الحفاظ على «طبيعتها اليهوديّة.» فهذه هي، في النهاية، فحوى الصهيونيّة وجوهرُها.

التكتيكات والاتجاهات

فَضَحت انتفاضةُ الأقصى نفاقَ الولايات المتحدة (وأنا لا أميِّز هنا بين الحكومة والشعب، لأنّ النفاقَ يَنْطبق عليهما معًا). ذلك أنّ قيمَ الحريّةِ، والديموقراطيّةِ، والعدالةِ، ورفضِ الاضطهاد الدينيّ والاثنيّ، كلّها يُضْرب بها عرْضَ الحائط حين يتعلّق الأمرُ بفلسطين؛ وعلى العكس نجد تماهيًا شديدًا بين الحكومة والشعب الأميركيّ من جهة وإسرائيل بوصفها قوّةً كولونياليّةً استبعاديّةً من جهة ثانية. وهذا النفاق المخزي أدّى إلى بعض التغييرات المهمّة. فلقد فهمتْ حركةُ السلام في أميركا أخيرًا أنّ إسرائيل قوّةٌ استعماريّةٌ تهيمن على شعبٍ آخر. ولذا قامت هذه الحركةُ بتبنّي معظم المطالب الأساسية لحركة التضامن مع فلسطين، وعلى رأسها: إنهاءُ الاحتلال، وقيامُ دولة فلسطين مستقلّةٍ عاصمتُها القدس، وتعليقُ المساعدات الأميركيّة لإسرائيل إنْ لم يكن وقفها. وهذه كلُّها مكاسبُ ذاتُ دلالة كبيرة، وعلينا أن نَدْفع بها قُدُمًا.

قد يتساءل القارئُ: وَمَنْ يهمّه أمرُ حركة السلام في أميركا أصلاً؟ جوابي هو التالي: إنّ باستطاعة الحركات ذاتِ القاعدة الشعبيّة في أميركا أن تؤدِّي إلى تغييرات سياسيّة، وقد فعلتْ ذلك حقّاً، ولاسيّما في ما يتعلّق بسياسة أميركا الخارجيّة، كما هو الحال مع جنوبيّ أفريقيا وڤيتنام وأميركا اللاتينيّة. إنّنا نعيش في عالمٍ أُحاديّ القطب، تهيمن عليه أميركا بصورة متزايدة. ويبدو أنّ على التغيير، لكي يكون فعّالاً، أن ينبثق من الولايات المتحدة، إلاّ إذا تمكّنتْ حركةُ التحرير الفلسطينيّة من فرض حلّها كأمرٍ واقع. ولكنّ هذه الحركة أثبتتْ حتى الآن عجزَها عن القيام بذلك لأسباب ثلاثة رئيسيّة هي: الدعمُ الأميركيّ الثابت لإسرائيل، وتواطؤُ النظام الرسميّ العربيّ، وانعدامُ التوازن انعدامًا هائلاً بين إسرائيل والفلسطينيّين من حيث القوّةُ العسكريّة. لذا، علينا أن نستنتج أنْ لا أملَ لدينا إلى أن نغيِّر موازينَ القوى، أيْ إلى أن نغيّر العواملَ الثلاثةَ أعلاه، وأولُّها الدعمُ الأميركيُّ لإسرائيل. وعلى حركة التضامن مع فلسطين في أميركا أن تركِّز على هذا الهدف: إضعاف الدعم لإسرائيل في كل المستويات. عندها فقط قد تفكّر «القوّةُ الحاكمةُ» في أميركا بالتضحية بإسرائيل، كما سَبَق أن ضحّت بشاه إيران، وماركوس، وبينوشيه، وغيرهم، وافريقيا الجنوبيّة، وڤيتنام الجنوبيّة، وغيرها. إنّ القوّة الحاكمة في أميركا هي، قبل كلّ شيء، براغماتيّة وعمليّة. فهي لا تحبّ أن تحارب معركةً خاسرة. ولهذا علينا أن نَجْعل من دعم إسرائيل الأعمى معركةً خاسرة.

على صعيد الوضع المحليّ تَشْهد الولاياتُ المتحدة انحرافًا خطيرًا نحو اليمين، وقد ازداد هذا الانحرافُ في أعقاب أعمال ١١ أيلول (سبتمبر) الإرهابيّة. واليوم يهيمن على الخطاب السياسيّ في الولايات المتحدة الجناحُ اليمينيُّ في الحزب الجمهوريّ، الذي يسيطر عليه اليمينُ المسيحيُّ والضبّاطُ ذوو النزعة العسكريّة. والحقّ أنّ غالبيّة الشعب الأميركيّ تؤيّد الحلولَ العسكريّة للمشاكل التي بيَّن التاريخُ أنْ لا حلّ لها عسكريّاً، مثل مشكلة الإرهاب. وهذا يؤثّر سلبًا في قضيّة فلسطين، على مستوياتٍ ثلاثة:

١ ــ الشعب الأميركيّ اليوم يتفهّم عقليّةَ شارون العسكريّة، بل هو مُعْجَبٌ بها في سرِّه، لأنّها تحاكي عقليّةَ القيادة العسكريّة الأميركيّة.

٢ ــ لقد تبنّى اليمينُ المسيحيُّ موقفًا إيديولوجيّاً صهيونيّاً في ما

سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطينيّ في أميركا ـ نقد الشعارات والتكتيكات

يخصّ قضيّةَ الصراع الفلسطينيّ ـ الإسرائيليّ، إلى حدّ أنّه لم يترك مجالاً لأيّ خطاب آخر. وهذا الموقف يقول بوضوح إنّ اليهود هم الشعبُ المختار، وإنّهم سكّان فلسطين الأصليُّون، وإنّ تأسيسَهم دولةً يهوديّةً شرطٌ أساسيّ لعودة المخلِّص.

٣ ـ أمّا الحزب الديموقراطيّ، الذي كان ومايزال أكثرَ تأييدًا لإسرائيل من الحزب الجمهوريّ، فيجد نفسَه في موقع الدفاع، الذي يدفعه إلى إظهار ولائه لإسرائيل بأن يصبح ملكيّاً أكثرَ من الملك (بوش) في هذا المجال.

نستنتج من هذا أنّ المؤسَّسة السياسيّة في الولايات المتحدة مؤيِّدةٌ لإسرائيل إلى حدٍّ ميؤوسٍ منه، وأنّ على أيّ تغييرٍ أن يُفْرض فرضًا على هذه المؤسّسة من تحت أو من الخارج، لا من داخلها. وأَقْصد بـ «من تحت»: المنظّمات والحملات ذاتِ القاعدة الشعبيّة. وأمّا «من الخارج» فيعني إيذاءَ المصالح الأميركيّة عبر العقوبات الاقتصاديّة من أجل إجبار المؤسّسة السياسيّة المذكورة على أن تكون أكثرَ توازنًا.

في ما تبقّى من هذه المقالة سأرسم مخطّطًا عامًا لما أعتقد أنّه قد يكون استراتيجيّةً مُرْبحةً لحركة التضامن مع فلسطين داخل الولايات المتحدة. ولهذه الاستراتيجيّة المقترحة عناوينُ متعدِّدةٌ هي التالية:

القوّة الانتخابيّة. إنّ على رأس الإستراتيجيّات الفعّالة بناءَ الجاليتيْن العربيّة ـ الأميركيّة والمسلمة ـ الأميركيّة (اللتين تقدَّران بـ ٦ ملايين شخص في أميركا اليوم) ككتلة انتخابيّة. وأنا أؤمن بأنّ على حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة أن تتوحّد مع تحالفٍ واسعٍ من القوى من أجل بناء حملة جديّة تَهْدف إلى إسقاط الأعضاء المؤيِّدين لإسرائيل داخل مجلس الشيوخ والكونغرس والطبقة السياسيّة الحاكمة، أمثال لانتوس وديلاي وفاينستاين وغيرهم. وعلى هذه الحملة أن تخاطب الجمهورَ الأميركيّ وتُثْبت لهم أنّ أفعال هؤلاء السياسيِّين مُضِرَّةٌ بمصالح أميركا على المدى البعيد، متجنِّبةً الموضوعاتِ الملتهبة أو التي يَسْهل إساءةُ فهمها. فمثلاً هناك اليوم دعمٌ كبيرٌ لفكرة إنشاء دولةٍ فلسطينيّة، ولكنْ ثمّة غموضٌ حول طبيعة هذه الدولة. دورُنا هو أن نزيل هذا الغموض وأن نحدِّدَ سماتِ هذه الدولة بطريقةٍ تتوافق وتطلُّعاتِ الشعبِ الفلسطينيّ. أمّا بالنسبة إلى هدفنا الآخر المتمثِّل بحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيِّين، فهذا يحظى بتفهُّمٍ أقلّ بكثير، ولذلك لا نستطيع أن نَجْعل منه اختبارًا للسياسيِّين الأميركيِّين، ولكنّ بإمكاننا أن نبدأ حملة تثقيفٍ حول هذا الحقّ (عبر الكتب وأفلام التوثيق والأفلام التي تروي أحداث النكبة). والحال أنّ هناك منظّمات عدّة، بما فيها اللّجنةُ العربيّة ـ الأميركيّة المناهِضةُ للتمييز ADC والمعهدُ العربيّ ـ الأميركيّ، قد أطلقتْ بداياتِ حملةٍ جديّةٍ تَهْدف إلى تحقيق ذلك.

السياسات التقدُّميّة. الاستراتيجيّةُ المُرْبحةُ الأخرى هي أن نتوحّد من أجل هزيمة قادة اليمين المسيحيّ. كثير من أعضاء حركة السلام في أميركا، بل ومن أعضاء الحزب الديموقراطيّ أيضًا، يَعْتقدون أنّ اليمين المسيحيّ هو عدوُّهم رقم ١؛ وهذا قاسمٌ مشتركٌ بيننا. إنّ هزيمة أيّ عضوٍ في اليمين المسيحيّ خطوةٌ في الاتجاه الصحيح. ولكي ننجح في ذلك، فإنّ على خطاب حركة التضامن مع فلسطين أن يكون أكثر انفتاحًا على الآخرين وأكثرَ تقدُّميّةً حيال قضايا العدالة الاجتماعيّة وحقوقِ العمال والحريّات المدنيّة داخل الولايات المتحدة. فلم يعد في وسعنا أن نبقى على الخطوط الجانبيّة، ثم نتوقَّعَ أن يدعمنا الآخرون!

التشديد على المصالح المستقلّة للولايات المتحدة. هناك عدد كبير من الأميركيِّين الأحرار الذين يُروِّعهم تحكُّمُ اللوبي المؤيِّدِ لإسرائيل بالقرار السياسيّ في واشنطن (مع أنّ هذا اللوبيّ يمثِّل مصالحَ أقليّةٍ ضئيلةٍ هي ٢٪ فقط من الشعب). إنّ صورة بيبي ناتانياهو يلوي ذراعَ الكونغرس الأميركيّ، لكي يلوي هذا بدوره ذراعَ الرئيس بوش، لهي صورةٌ مُذِلّةٌ ومهينة. فإذا فَضَحْنا هذا الواقع بطريقة صحيحة، استطعنا أن نربح أصواتًا أكثرَ إلى

جانبنا. والواقع هو أنْ لا أحد، لا في أوروبا ولا في روسيا ولا في الصين، يَمْلك النفوذَ الذي يَمْلكه الصقورُ الإسرائيليُّون في الولايات المتحدة. ولا أحد، باستثناء السياسيِّين الإسرائيليِّين، يَمْلك الجرأةَ على أن يتدخَّل بمثل هذه الصفاقة في الأمور الداخليّة للولايات المتحدة. فهم يعلمون أنّهم قادرون على ذلك بسبب هيمنة العقيدة المؤيِّدة لإسرائيل على القوّة الحاكمة في أميركا. ولذلك فإنّ فضح هذه الهيمنة قد يُكسبنا أصدقاء جدًا كثيرين.

العصيان المدنيّ. تَفْتقر حركةُ التضامن مع فلسطين إلى التكتيكاتِ الدراماتيكيّة التي تبنَّتْها حركاتٌ أخرى، مثلُ حركة مناهضة الحرب ضدّ ڤيتنام أو الحركة المعادية لنظام الفصل العنصريّ (الأپارتايد). فهذه الحركات استخدمتْ إستراتيجيّاتِ العصيان المدنيّ والتأثيرات الدراماتيكيّة، في حين أنّنا نأيْنا بأنفسنا عن ذلك. وأَعْتقد جازمًا أنّنا فعلنا ذلك لأنّنا إلى حدّ كبير محافظون في توجُّهاتنا. فنحن لا نعرف كيف نَسْتعمل الحريّات التي حصلنا عليها في أميركا وكيف نوسِّع الهوامشَ المتاحة. علينا أن نعيد التفكير في هذه الأمور. وحقيقة الأمر أنّ هناك دلائلَ على بدايات تغييرٍ كهذا في جامعة بيركلي في كاليفورنيا، حيث يَعْمل الطلاّب بكدٍّ على حملةٍ لسحب الاستثمارات الأميركيّة من إسرائيل.

التحالف مع الجالية اليهوديّة التقدُّميّة. لعلّ أكثرَ توصياتي عرضةً للخلاف هي ضرورةُ بناء تحالفٍ مبدئيّ مع الحركة اليهوديّة التقدُّميَّة في الولايات المتحدة، وهي حركةٌ يتبنّى اليومَ معظمُ أفرادها أهدافَنا الأساسيّة. إنّ الجالية اليهوديّة في أميركا جبّارة، ولكنّ لها أيضًا تاريخًا طويلاً من الانخراط في القضايا التقدُّميّة. وأعتقد أنّ كسب اليهود التقدُّميِّين إلى صفوفنا لا يمكن إلاّ أن يقوّي حركتنا وأن يعطينا أيضًا استشرافًا أبعدَ لكيفية حلّ المشكلة اليهوديّة بموازاة المشكلة الفلسطينيّة في فلسطين. إنّ أكبرَ خطرٍ يواجهنا، كحركة تضامن مع فلسطين في أميركا، هو أن نُنْعتَ بالعداء للحركة اليهوديّة، ومن ثمّ بالعنصريّة أو الأصوليّة أو ما شئتم من نعوت. فذلك سيُحْبط أيَّ أمل لدينا في إحداث تغييرٍ شعبيٍّ في الولايات المتحدة.

إنّ الاعتراض الرئيسي على هذه الإستراتيجيّة هو أنّ اليهود التقدُّميِّين، رغم تقدُّميّتهم في كل القضايا، لا يَدْعمون حتى الآن الحقوقَ السياسيّة والتاريخيّة للفلسطينيِّين، ومن ثم فَهُمْ لا ينفكُّون يدفعون إلى تمييع هذه الحقوق. ويشير المعترضون إلى فترة الثمانينيّات، حين أدّت تحالفاتٌ من هذا النوع في الولايات المتحدة إلى تبنِّي شعارات غامضة مثل «نعم للسلام في الشرق الأوسط» وهو شعار لا يتصدّى لصميم المشكلة، ألاَ وهي الحقوق التاريخيّة والسياسيّة للفلسطينيِّين. ومع أنّني أتّفق مع هؤلاء المعترضين، فإنّني أجد تبدُّلاً لدى قسم كبير من الجالية اليهوديّة التقدُّميّة باتّجاه تبنّي هذه الحقوق. وعلينا أن نواصل الإصرارَ على هذه الحقوق لأنَّها لبُّ أيِّ تحالفٍ عتيد.

وختامًا نقول إنّ حركة التضامن مع فلسطين قد كسبتْ في هذا العالم زخمًا هامّاً، على نحوِ ما يدلُّ حجمُ التظاهرات ونضجُ الشعارات التي رُفعتْ فيها. ولكنْ يبقى أمام هذه الحركة طريقٌ طويلةٌ ووعرةٌ من أجل هزيمةِ إيديولوجيا القوّة الحاكمة في أميركا، وهي إيديولوجيا مهيمنة ومؤيِّدة لإسرائيل. ومن أجل تحقيق ذلك يَنْبغي على هذه الحركة أن تَصُوغ التحالفات وأن تركِّز على الأهداف القابلة للتحقُّق.

سان دييغو، كاليفورنيا

ناصر البرغوثي

ناشط منذ أعوام طويلة في حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، وعضو في فرع سان دييغو للجنة الأميركيّة ـ العربيّة لمكافحة التمييز. يحمل شهادة دكتوراه في العلوم الحاسوبيّة من جامعة كولومبيا (نيويورك)، ويملك شركة للبرامج الإلكترونيّة.